الفصل الثاني

الصفدي الناقد من خلال كتبه

سنعكف في هذا الفصل على ما خلفه لنا الصفدي من آثار ، نطل منها على الناقد فيه ، بتوجيه الأضواء من نوافذ متعددة ، فتتعاون الخطوط وتتكامل السمات لتنجلي الصورة بعد ذلك واضحة للعيان ما أمكن ذلك .

وتحقيقاً لهذا نجعل الحديث موزعاً على الجوانب المتعددة ، التي تؤهل الأديب ليكون ناقداً جديراً ، وأول هذه الجوانب هو :

موهبته :

وفي الكلام تحت هذا العنوان نحاول الإجابة عما إن كان الصفدي موهوباً حقاً ، ليكون ناقداً يتصدى للنصوص بالدرس والتحليل ، والكشف عن نقـــاط الضعف ومواطن الجمال ، والتعليل ما أمكن لما يقول ويحكم .

والحق أن الصفدي تمتع بالموهبة ، فما إن يعرض له نص حتى ترى نفسه تسبقه للتعبير عن إعجابٍ أثاره ، أو قبحٍ يصدم حسه وذوقه ، أو اقتراح تعديل يضمن فيه للنص سحره . . ولا تطالعه في الأدب ظاهرة ؛ حتى يهتم لها ويبقى معها يقلبها ويدور حولها ، إلى أن يجد لها التعليل الذي تسكن إليه نفسه ، ويستقر له خاطره وفكره . وقد تعهد الصفدي موهبته هذه بالتدريب والممارسة ، حتى قضى حياته كلها مع الأدب يعالجه بالدرس والمقارنة والتصنيف .

وهاك بعضاً من النماذج الدالة على توفر الموهبة لديه ...

فمنها قوله بعد أن أورد قول المعري من أبيات يدافع بها عن الكهولة فيقول :

واذْكُري لي فَضْلَ الشبابِ وما يَجْـ ـمَعُ من مَنْظَرٍ يَرُوقُ وطِيبِ
غَـدْرُهُ بالخليلِ أم حُبُّهُ للغَـ ـيِّ أم أنّه كَدهْرِ الأديبِ

« وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل ، فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عمن جذب زمامه ، لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس ، في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته . ولهذا قالوا من فقد حاسة فقد علماً ... وإذا كان كذلك فالمحسوس أصل والمعقول فرع ، وتشبيه المعقول بالمحسوس من باب رد الفرع أصلاً ، وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

وكأنَّ ٱلنُّجومَ بينَ دُجاها سُنَنٌ لاحَ بينَهُنَّ ابتِداعُ

وقول الآخر :

كأنَّ ٱلقَلبَ والسُّلوانَ ذِهنٌ يَحُومُ عليه مَعْنًى مستحيلُ

وقول الآخر :

كأنَّ انتِضاءَ ٱلبَدرِ تحتَ غَمَامِهِ نَجاةٌ من ٱلبَأْساءِ بعد وُقوعِ »[1]

وهكذا نرى كيف أفصح لنا هذا النص ، عن إدراك الصفدي لهذا النوع الرفيع من التشبيه ، الذي لايستطيعه إلا المطبوعون ، أصحاب الذوق اللطيف والإحساس

---

(١) الغيث المسجم ١/٢١٠ - ٢١١

الصادق والتخيل السامي الدقيق ، بينما يمتنع على المتكلفين ، ممن يقصد إليه قصداً ويجهد لجره بالزمام . فهذا النوع قبل أن يكون تشبيهاً ؛ ما هو إلا إرضاء لإحساس صادق غلاب جاشت به النفس الشاعرة . كما لمس الصفدي بالتالي دور الحواس في تكوين المعقولات والصور ، وأن المحسوسات البسيطة هي الأصول الأولى لتلك . ثم دل على نضج هذا الإدراك لديه ؛ بما أورده من النماذج الوفيرة ، التي اجتزأت منها بإيراد ما يفي بالمطلوب .

وقال الصفدي بعد أن أورد بيتي الطغرائي في لاميته :

والدَّهرُ يَعْكِسُ آمالي ويُقْنِعُني من الغنيمةِ بعدَ الكَدِّ بالقَفَلِ
وذي شِطاطٍ كَصَدْرِ الرمحِ مُعْتَقِلٍ بمثله غيرِ هَيّابٍ ولا وَكِلِ

« ألا ترى أن الطغرائي لما أخذ في وصف حاله ، وما هو فيه من النكد وضيق الحال ، كأنه أطال على المخاطب في ذلك وأحس منه الملل ، فالتفت الى وصف هذا الصاحب الذي رافقه ، فانشأ للسامع معنى غير الأول بعث له نشاطاً جديداً ، وأستأنف له إصغاء آخر ، وجدد له تطلعاً يتشوق معه الى الوقوف على هذا الخبر الثاني ، وهذا غير خاف .

« وقوله كصدر الرمح معتقل بمثله ، من الإيجـــاز والاختصار لأنه استغنى (بمثله) عن أن يقول : برمح طويل قويم معتدل . ومـا أحسن المثل المشهور (ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق) . وقال البحتري :

والشِّعْرُ لَمْحٌ كَفَتْ إشـــارَتُهُ وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ [1]

فإذا نظـر الصفدي في بيتي المعري الى التشبيه ، وأدرك سمو الفن فيه في

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١٥٨

إدراك العلاقة بين الصور الحسية والحالات المعنوية ؛ فإنه في هذا النص اتجه في نقده الى الأثر النفسي الذي أحدثه النص ، في انتقال الشاعر من الحديث عن نفسه الى وصف صاحبه ، بما يوقظ انتباه السامع وينبه ذهنه لهذا الجديد . كما أشار الى صفة هامة من صفات الشعر ، في لمحاته المثيرة التي تطلق الخيال ، لدى مصافحة كلمات هذا الشعر المكتنزة بالإيماءات والأصداء أذنَ السامع المتذوق .

ويعمق الصفدي إحساسنا بهذه الإشارة ، إلى الإيجاز الغني في التعبير ، دالاً بهذا على تأصل ذلك لديه فيقول :

« وأحسن ما ورد في الإيجاز قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) .

« وهذه الآية مشهورة بين أرباب البلاغة بالإبداع ، وأعظم ما فيها شرح شأن نوح عليه السلام في الطوفان ، من أوله الى آخره في هذه الألفاظ القلائل ، ومن جملة إعجاز القرآن إيجازه ، وهو مشحون بذلك [1] » .

ولا يتوقف الصفدي عند هذا ؛ بل يعود ثانية الى حديقة الشعر يتنقل بين نماذجه ، ويتخير منها ما يكشف عما ينطوي عليه هـذا الإيجاز الموحي من إثاره ومتعة وإبداع .

وكما يطرب الصفدي للإبداع ويهتز للجمال ، فإنه لا يخفي انفعاله ونفوره في مواطن الضعف أو الركة والإسفاف ، من ذلك ما أورده في كتابه فقال : « وما أحسن قول ابن التعاويذي :

بينَ السُّيوفِ وعينيه مُشاكَلَةٌ   من أجلها قيلَ للأغمادِ أجفانُ

(١) الغيث ١ / ١٥٨

« وإن كان أخذه من أبي الطيب في قوله :

ولذا اسمُ أَغْطيةِ ٱلْعُيونِ جفونُها من أَنَّها عملُ ٱلسيوف عواملُ

« فإنه تناوله خبَث حديد وأعاده قلادة جيد . ولم يكف أبا الطيب بشاعة اللفظ في قوله (أغطية العيون) حتى هجّنه بتقديم ترتيبه وتأخيره . والتقدير : من أنها عوامل عمل السيوف [1] » .

ولن نناقش الصفدي هنا في سر إعجابه ببيت ابن التعاويذي ، بل ننظر في رده لبيت المتنبي بالرغم من شدة إعجابه بالمتنبي ، ورضاه عما قاله فيه أبو العلاء وغيره ، ولكنها في الناقد الفني من مبررات وجوده وإحدى بدهيات سماته .

وحين يسمع ابنَ الأثير ، يحمل على الحريري ويضع من قدره ، لعجزه عما كلف به في الديوان ، وهو العلَم المشهور صاحب المقامات ؛ ينبري الصفدي للكلام ويسير في تعليل هذه الظاهرة ، حتى يضع أيدينا على الأسباب ، ويطمئن الى حسن وصولنا الى شاطىء الوضوح والاقتناع إذ يقول :

« أما عجب الناس من واقعة الحريري ، فهي موضع العجب في بادىء الرأي ، لأن من يصدر عنه مثل هذا الكتاب الذي لا نظير له في بابه .. ثم يتوقف في كتاب يطلب منه ، فإن ذلك غريب ، وأما إذا فكر الإنسان وعلم أن الإنشاء من باب الفتوح على الإنسان ، لم يكن ذلك بعجيب . لأن الله تعالى قد يفتح بذلك في وقت دون وقت . وقد عَد الشيخ محيي الدين ابن العربي النظمَ وحسن الكتابة من الفتوح ، وما زال الناس كذلك تارة يُفتح عليهم وتارة لم يفتح ، والحريري في ذلك الوقت لم يفتح عليه .

« على أن الحريري في وقت عمل المقامات كان في بيته مخلّى ونفسه ، يصوغ

---

(١) الغيث ١ / ١٧

ويكسر ويهدم ويبني . فإذا نبا به مقام تحول الى غيره ، وإذا تقاعس عليه معنى تركه وجذب ما هو أسلس قياداً منه . وقد ذكر أن مسودات المقامات كانت حمل جمل . وذلك غير جلوسه في الديوان وأول قدومه وهو بين جماعة من أرباب الفن ، ويقترح عليه معنى لا محيد له عنه ، ولا فسحة له في مضيقه ، ولا نجاة له من زلله ، ولم يكن استعد له .

« لا جرم أنه أُفحم ونتف عثنونه [1] » .

وهكذا يذهب الصفدي كل مذهب ، باحثاً عن علة عجز الحريري عن تحرير كتاب في ديوان الإنشاء ببغداد . لأن منصفاً لا يمكن أن يصم أديباً كالحريري لأمرٍ هين الشأن كهذا ، بما كاله له ابن الأثير وغيره ، فكان أن جمع الأسباب في أمور ثلاثة :

— أولها : الحالة النفسية التي يكون عليها الكاتب وسماها الفتوح .

— وثانيها : ضائقة الزمن التي أحاطت به وفُرضت عليه ، بينما اتسع له الوقت في بيته وهو يكتب المقامات . حتى بلغت مسوداته حمل جمل .

— وثالثها : ضائقة الموضوع ، أو المعنى الذي لا عهد له به ولا محيد له عنه .

ولكن هذه العلل مجتمعة لم تقنع صاحبها نفسه ، فعندما وصل في تعليله الى هذه النقطة ، بقي ذهنه يضطرب لتساؤل جديد ، لأن الكاتب القدير لا يعجزه تحرير كتاب مهما ضاق الزمن ، وتحدد الموضوع ، وكانت الحالة النفسية غير مواتية . فراحت حاسته القلقة تبحث دائبة الى أن قال :

« وقد ظَلم المقامات من جعلها من باب الترسل والترسل جزء منها ، بل هي كتاب علم في بابه » . وبذلك وضع الصفدي يده على السر ، فالمقامات تأليف في

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٦

الأدب من نوع جديد ، فهو فن مستقل من فنونه ، له خصائصه ومزاياه ، وما ذاك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهره تلك الحكايات المضحكة ، التي إذا شرع الإنسان في الوقوف عليها ، تطلعت نفسه الى ما تنتهي اليه ، وتشوقت نفسه الى الوقوف على آخر تلك القصة [1] » .

إذن فقد زال العجب من عجز الحريري عن تحرير كتاب ديواني ، بما يلزمه فيه من مراعاة قيود وتقاليد تتعلق بالألقاب والمقدمات ، وأسلوب في المخاطبات لا يعرفها إلا الموظفون في دواوين الدولة .

وليس هذا فحسب ، بل إن هؤلاء الكتاب ليعجزون أن يأتوا بمثل ما أتى به الحريري ، لما تتطلبه المقامات من ملاحظة دقيقة ، وخيال مجنح حي ، وروح فتية ، مما يفتقر إليه كبار كتاب الدواوين . وقد « قيل لابن عميرة كاتب الأندلس : لأي شيء ما تصنع مثل المقامات ؟ فقال : أما الألفاظ فما أغلب عنها ، وأما تلك الأكاذيب التي تكذبها ، فما أحسن أن أضع مثلها [2] » بهذا فسر ابن عميرة موهبة الحريري في صدقه الفني إذن .

أما الصفدي فقد استمر مع هذا الأمر كما رأيت ، حتى وصل في التعليل الى قرار اطمأن فيه ، وشاطىء ارتاحت نفسه إليه .

وينتبه الصفدي على صوت ابن الأثير ، وهو يدعي أن أبا نواس ومسلم ابن الوليد وأبا تمام والبحتري وأبا الطيب وغيرهم كعبد الحميد وابن العميد والصابي ، لم يتعلموا من كتب اليونان شيئاً وجاءوا بما جاءوا به [3] » . فيتصدى الصفدي ليثبت غير ذلك مبتدئاً بالتوجه نحو شعر هؤلاء يستدرجه ليشي بالحقيقة ، متلطفاً للحصول عليها من أفواه أصحابها ؛ والبحث عن الحقيقة رائده فيبدأ « بقول أبي نواس :

---

(١) نصرة الثائر ص ٦١
(٢) « « ص ٦٠
(٣) المثل السائر ٢ / ٤

أباحَ العراقيُّ النبيـــذَ وشربَهُ وقالَ حرامانِ المُدامةُ والسُّكْرُ
وقال الحِجازيُّ الشرابانِ واحدٌ فحلَّتْ لنا من بين قوليهما الخَمْرُ
ســآخذُ من قوليهما طرفيهما وأشربُها لا فارقَ الوازِرَ الوِزْرُ

« فمن أنعم النظر في هذه الأبيات علم أن أبا نواس كان منطقياً ، فإن استنتاجه حل الخمر من مقدمتي كلام الفقيه العراقي والحجازي يدل على ذلك . وهذا على عادة مجاز الشعر ، وإلا فالصحيح حرمة الخمر .

« وأما أبو الطيب فقد قال : أنا وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري . وكلام هذين الشاعرين يدل على أنهما ما عريا عن شـــيء من علوم الفلسفة خصوصاً المتنبي ، والخاتمة تدل على أنه كان ينظر في كلام القوم .

« ألا ترى قوله يمدح ابن العميد :

مَنْ مُبلغُ الأَعرابِ أني بعدَهــا جالسْتُ رِسْطاليسَ والإسكندرا
وسمعْتُ بَطْلَيْموسَ دارسَ كُتْبِهِ مُتَبَـــدِّياً مُتَمَلِّكاً مُتَحَضِّرا

وهذا بعيد أن يصدر ممن لم ينظر في كتب القوم .

« وأما ابن العميد فقد قال ابن خلكان رحمه الله تعالى في ترجمته : وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم . قلت : والبيتان الرائيان المذكوران لأبي الطيب في مدحه يؤيد ما قاله ابن خلكان . وأقول : أليس هو بصاحب الصاحب ابن عباد ، وقد كان من رجالات المعتزلة ، وله في أصولهم مصنف . ومن المستحيل أن معتزليا لا ينظر في كتب الفلسفة [1] » .

---

(١) نصرة الثائر ص١٨٥ وما بعدها

وبذلك يقرر الصفدي الحقائق الأدبية ، بعد أن يسعى إليها في سبلها السليمة من طريق النصوص ، ببصر نافذ وخُطا وئيدة ثابتة .

وعندما يصل الصفدي الى بيت الطغرائي :

إنَّ ٱلْعُلا حَدَّثَتْني ـ وهي صادِقَةٌ ـ فيما تُحَدِّثُ أَنَّ ٱلْعِزَّ في ٱلنُّقَلِ

يهزه ما يرى فيه من صدق وإبداع ، ولكن حاسته الناقدة لا يرضيها الاكتفاء بالاستمتاع قبل أن يذهب في التعليل كل مذهب ، ليكشف عن سر هذا الإبداع ما وسعه ذلك فيقول : « وقد استعار الحديث للعـــلا ، لأن العلا أمور معنوية لا تتصف بالكلام ، ولكنه لما جرب وجود العز بالنقلة والحركة ، صارت التجربة عنده علماً استفاده ، فصار كأنه حدثته العلا بذلك ، فأسند ذلك الى العلا ، تعظيماً للرواية في إسنادها الى العلا ، ليتلقاها السمع بالقبول . وقوله : (وهي صادقة) جملة اعتراضية اعترض بها ، وقد زاد الكلام حسناً لتأكيد الصدق عند المخاطب ، وهذا أبلغ من قوله : إن العلا حدثتني فيما تحدث أن العز في النقل [1] » . ولكي يطيل تذوقنا لهذا النوع من الاعتراض ، يذهب بنا في جولة بين النصوص الرفيعة فيقول : ومن الجمل الاعتراضية قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم ـ وإنه لقسم لو تعلمون ـ عظيم ، إنه لقرآن كريم » .

فاعترض اعتراضين : أحدهما أصل والثاني فرع . الأول اعتراضه بقوله : (وإنه لقسم) بين قوله بمواقع وبين قوله إنه لقرآن كريم . الثاني أنه اعترض بقوله : (لو تعلمون) بين قوله وإنه لقسم وبين قوله عظيم .

وقد رأيت ما أفادت الجملتان في الاعتراض من الجزالة والبلاغة . ومثل هذا الاعتراض يسميه البلاغون حشو الموزينج . كقول عوف ابن محلّم :

---

(١) الغيث المسجم ٢/٥٦ ـ ٥٧

إنَّ الثمانينَ ــ وبُلِّغْتَهــا   قد أحْوَجَتْ سمعي إلى تَرْجُمانِ

فقوله (وبلغتها) حشو يتم المعنى بدونه . وقول كثيّر عزة :

ولو أنَّ عَزَّةَ حاكَمَتْ شمسَ الضُّحى   في الحُسْنِ ـ عندَ مُوَفَّقٍ ـ لقَضَى لها »[1]

ونكتفي بما مر من نصوص ، رأينا فيها موهبة النقد عند الصفدي ، لننقل الكلام إلى ذوقه فنتعرف إليه من خلال آثاره .

وبعدُ فهذا نموذج مما تُسرع بالصفدي حاسته للاستدراك على الأديب ما يراه في أداء معنى ، أو بإتقان صياغة ، ليتم للنص ما يراه من الإجادة والتأثير . من ذلك ما قاله في بيتي ابن سناء الملك :

لها ناظرٌ ياحسْرَةَ الظَّبْيِ إذْ رَنا   به كَحَل ناداه يا خَجْلَةَ الكُحْلِ

وأثقلَها الحُسْنُ الذي قد تكاثَرَتْ   مَلاحَتُــهُ حتَّى تَثَنَّتْ من الثِّقْلِ

« ولو كان لي في البيت الأول حكم لقلت : لها ناظر يا حـيرة الظبي عنده ، وخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاه .

« وأما قوله : وأثقلها الحسن : فابن جبارة[2] معذور فيه ، لأن حُسناً يثقل صاحبه سمج بارد غث ، لأن الحسن إنما يفيد الخفة والحركة والنشاط ، وما مدح بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الخصر ورشاقة القد .

« ومنه قول شمسة الموصلية :

هَيْفاءُ إنْ قالَ الشَّبابُ لها انْهَضي   قالَتْ رَوادِفُها اقْعُدي وتَمَهَّلي[3]

---

(١) الغيث المسجم ٢ / ٥٨

(٢) قال ابن جبارة في تعليقه على الأبيات : « كان الصواب أن يقول : أثقلته الملاحة التي قد تكاثر حسنها . . [ثم قال :] وقد وكلت شرح هذا البيت ـ لعجزي عن معناه ـ الى عريف الحمالين فعساه يعرف معناه » الغيث ١ / ٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق .

ونكتفي بما مر من نماذج تنم عما توفر للصفدي من موهبة فطرية في النقد ، تعهدها بالمران والإغناء والصقل ، باطلاعه الواسع على تراث العرب الأدبي الغزير ، وما حفظه من نصوصه الرفيعة ، فكانت له خير مورد يمتح منه ويعود اليـــه ، ليؤصل به أسلوبه الفني في النقد ، الذي يقوم على لقـاء النصوص في المعنى الواحد أو الشعور المتقارب ، والمقارنة فيما بينها على هذا الأساس الفني المجرد الرفيـع .

ذوقـه :

وفي الحديث عن ذوق الصفدي ؛ أنهج ما كان مني في طريق الكشف عـن موهبته في النقد ، وذلك بترك النصوص تتحدث بما فيها ، فنخرج بالحقيقة بعد ذلك .

وإن كان لا بد من كلمة سريعة أقولها هنا ، فهي أن الذوق المتمرس المدرب ، هو أول ما يرسب في نفوسنا عن الأديب الصفدي لدى مطالعة كتبه ، لما نراه من سمو مختاراته من ناحية ، وفي نظره ببعضها بما يدل على بصره بالنصوص من ناحية أخرى . ومن الطبيعي أن يكون هذا عند من عايش القريض والكتابة ، وعاناهما قارئاً وقائلاً ، ولازمته النصوص في كل ما يتعلق بالأدب والحديث فيه ، فقلما تحـدث الصفدي في ميدان النقد حديثاً نظرياً ، لأنه أبعد ما يكون عـن الغاية التعليمية ورصف القواعد النظرية ، التي كانت تحدو ابن الأثير في مؤلفاته .

فمن نظرات الصفدي المتذوقة ، رده على ابن الأثير في تعليقه وقـد أورد قول أبي نواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامسُ

بقوله : « مراده من ذلك أنهم أقاموا أربعة أيام . ويا عجباً له يأتي بمثـل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات . . . »

ويعجب الصفدي من وصم أمثال هذا الأداء بالسخف والعي فيقول : « ليس الأمر كما ادعاه من أنه أراد أنهم أقاموا أربعة أيام ، بل قد ذهب بعض المتأدبين إلى أن المقام كان سبعة أيام ، بدليل أنه أقام يوماً ويوماً وثالثاً فهذه ثلاثة أيام ، ثم قال ويوماً له يوم الترحل خامس فزاد الثلاثة أربعة أخر خامسها يوم الرحيل. وما يشك صاحب الذوق أن هذه العبارة أحسن من قوله أقمنا بها أسبوعاً ، وإن كان هذا أخصر في اللفظ ، ولكن ذلك له موقع (ويستطرد الصفدي فيقول) :

« سلمنا أن المقام أربعة أيام ، لكنه كرر ذلك لمعنى لم يوجد إلا في هذا التكرار ، وهو أن المقام في هذه الحالة مقام وصف لأيام قطعها في لذة ، فأخذ يعددها أفراداً غير جملة ويقول : أقمنا بها يوماً ويوماً ويوماً كالمتلذذ بهيئة كل يوم ، استحضرها في ذهنه وما هو لهم فيها من أنواع اللذاذات والمسرات . وهذا أمر متعارف في الخير والشر فيقال :

« واصلني يوماً في يوم في يوم في يوم ، وهجرني يوماً في يوم في يوم في يوم .

« ومن هذا قول مروان الأصغر :

سَقَى اللهُ نَجْداً والسَّلامُ على نَجْدِ ... ويا حَبَّذا نَجْدٌ على النَّأْيِ والبُعْدِ

« كرر ذلك تلذذاً بذكرها وتحرقاً بالشوق اليها . . .

« ولله در المتنبي حيث قال :

أَبا شُجاعٍ بفارسَ عَضُدِ الد ... ـدولةِ فنّا خُسْرَوْ شَهِنْشاها

أَساميًا لم تَزِدْهُ معرِفَةً ... وإنَّما لذَّةً ذكرناها » (١)

هكذا يعيش الصفدي مع التجربة ، وينفذ بذوقه الى أغوار الأداء ، ليدرك

---

(١) نصرة الثائر ص ٣١٥ وما بعدها .

موطن السحر في هذا التكرار ، بيد أنه وقع كما أرى في بعض التناقض لأن الأيام لا يمكن أن تكون سبعة بعد أن أدرك سر هذا التكرار ، وإلا فكيف يطوي أبو نواس الأيام الأخيرة طياً وهو يريـــد الاستعراض المتأني المصحوب بالتنهدات كما رأيت . . .

ومن ذلك قول الصفدي بعد أن أورد بيتي الطغرائي :

وَرَدْنَا سُحَيْراً بين يومٍ وليلةٍ وقد عُلِّقَتْ بالغرب أيدي الركائبِ
على حينَ عَرَّى مَنكِبَ ٱلشرقِ جَذْبُهُ من ٱلصُّبْحِ واسْتَرْخى عنانُ الغَياهبِ

« ما أحسن هذه الاستعارة في (عرى منكب الشرق) وفي (استرخاء عنان الليل) يعني أن الصبح ظهر وانكشف ، والليل أسرع ذاهباً .

« والاستعارة الأولى من قول ذي الرمة :

وقد لاحَ للسّاري الذي كَلَّ ٱلسُّرَى على أُخْرَياتِ اللَّيْـلِ فَتْقٌ مُشَهَّرُ
كمثلِ الحصانِ الأَنْبَطِ البطنِ قائماً تَمايَلَ عنه الجُلُّ واللَّوْنُ أَشْقَرُ

« فأخذه ابن المعتز فقال :

وساقٍ يَجْعَـلُ المنديلَ منه مكانَ حمائلِ ٱلسَّيْفِ ٱلطِوالِ
غدا والصبحُ تحتَ الليلِ بادٍ كطِرْفٍ أَشْقَرٍ مُلْقَى الجِلالِ

« والاستعارة الثانية تشبه قول ابن عمار الأندلسي :

أَدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انبَرَى واللَّيلُ قد صَرَّفَ ٱلْعِنَانَ عن ٱلسُّرَى

« لكن ابن عمار كنّى عن ذهاب الليـل بصرف العنان ، والطغرائي كنى

عن ذهابه بإرخاء العنان كأنه أسرع وولى هارباً (١) » .

فلم يكتف الصفدي بلمس مواطن الحسن في الأبيات ؛ بل ذهب بعيداً - وهو الناقد الفني - في إغناء نفوسنا وتوسيع أفق تذوقنا بطريق المقارنة . فإيراده لأقوال الشعراء الآخرين لم تكن للإشارة إلى أن هذا الشاعر سرق المعنى من ذاك ، وإنما يدفعه الى هذا إمتاع تذوقه بالنظر الى المعنى أو الشعور وقد تَرجمت عنه نفوس متعددة . ولامراء في أن هذا الأسلوب هو أحلى ما يتفتح له الذوق ويأنس به صاحبه .

وعلى هذا الأسلوب قال بعد ذكره بيتي مسلم ابن الوليد :

يقولُ صَحْبي وقد جَدُّوا على عَجَلٍ ... والخَيْلُ تَسْتَنُّ بالرُّكْبانِ في اللُّجُمِ
أَمَطْلِعَ الشَّمْسِ تَبْغي أَنْ تَؤُمَّ بِنا ... فقُلْتُ كلاّ ولكنْ مَطْلِعَ الكَرَمِ

« وهذا في غاية الحسن التي تكبو الفحول دون بلوغها ، ويعجز الشعراء عن الظفر بصونها والتحلي بصوغها . فإن عين السها تطيل النظر إلى رفعتها وتتأمل ، ومطايا التخيل تكل عن النهوض بعبئها فتتحمل وما تتجمل .

« وقد أحسن أبو العلاء المعري كل الإحسان حيث قال :

مُواصِلَةٌ بها رَحْلي كأَنّي ... منَ الدُّنْيا أُريدُ بها انْفصالا
سَأَلْنَ فَقُلْتُ مَقْصِدُنا سَعيدٌ ... فكانَ اسْمُ الأَميرِ لَهُنَّ فالا

« هذا مما يُطلب لحاقه فما تحمل الجواد قوائمه ، ويُسبَى له من كل حسن كرائمه ، ويفتح له في البديع نَوْر والقلوب كمائمه ، ويُجلي الأسماع من الدر بسمط لم يثقبه ناظمه (٢) » .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٣
(٢) « « ١ / ١١٦ - ١١٨

ونلاحظ هنا أن الصفدي لم يدلنا بدقة ، على ما أعجبه في قول مسلم وكذلك في قول المعري ، بل سار في تعليقه على القولين على طريقة عصره في النقد ، القائمة على المبالغة في التقريظ ، مع التزام السجع والقصد اليه .

وإنني إذ أبين أن هذا قلما لجأ إليه الصفدي مع النصوص ؛ أعتقد بأن شدة إعجابه بتعبير كل من الشاعرين ، دفعته الى أن لا يفسد على نفسه نشوتها ، بالتنقيب المتأني والتعليل الدقيق . ولا بأس من الاستمرار مع الصفدي ، في التعرف الى مدى ما يمتد اليه ذوقه . فنسمعه وهو يقول :

« ولا زلنا نستحسن الحكاية المروية عن المخنث ، الذي أنشد أبو بكر الخالدي بحضرته قصيدته في سيف الدولة ، وقد تأنق في معانيها وروق ألفاظها ومكنها بقوافيها . من جملتها قوله :

وَأَنْكَرَتْ شَيْبَةٌ فِي الرَّأْسِ واحِدَةٌ فعادَ يُسْخِطُها ما كانَ يُرْضِيها

« فقال المخنث : أما تستحي تخاطب الأمير أن تقول (في الرأس واحدة) فجن الخالدي والحاضرون تعجباً ، فقال الخالدي : فما أقول ؟ قال : قل لائحة أو واضحة .

« وكذلك قول مهيار يتغزل :

فِي صَدْرِها حَجَرٌ وتَحْتَ صِدارِها مَاءٌ يَشِفُّ وبانَةٌ تَتَعَطَّفُ

« فقوله في صدرها حجر من أبشع لفظ ، لما فيه من إيهام الدعاء[1] » .

ففي النص الأول ، ينفر الصفدي من الحشو الذي لا يضيف الى المعنى جديداً ، وقد ردد الصفدي مثل هذا في مواطن متعددة من كتابه ، منها قوله بعد أن أورد قول أبي الغياث المذلي :

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١١٤ - ١١٥

ذكرْتُ أخي فَعاودَني صُداعُ الرأسِ والوَصَبُ

« فذِكر الرأس بعد الصداع حشو يستغنى عنه . وكذلك قول ديك الجن :

فتنفّستْ في البيتِ إذ مُزِجتْ بالماءِ واسْتَنَّتْ سَنَى اللّهبِ
كتنفُّسِ الرّيحانِ خالَطَهُ من وَرْدِ جورِ ناضِرُ الشُّعَبِ

فذِكر الماء بعد المزج فضل يستغنى عنه ، والبيتان يكفي عنها قول أبي نواس :

فتنفّستْ في البيْتِ إذْ مُزِجتْ كتنفُّسِ الرَّيْحانِ في الأنْفِ » (١)

وبذا نرى تمسك الصفدي بإغناء المعنى ، ونفي كل لفظ لا يكون له وجود مكين في التعبير عن المعنى أو إغنائه .

أما في تعليقه على بيت مهيار ، فلقد أصاب الصفدي موطن الإثارة ، واستحق الشاعر منه كلمة أبشع التي عبر بها ، لكن «إيهام الدعاء» أسبق ما وصل الى لسانه ، والحقيقة أن الجو الذي تنقلنا اليه لفظة (الحجـر) بوحشته وقسوته ويبـ ملمسه يباين كلية ما أراد الشاعر إطلاقه من شعوره ، وفي مثل هـذا يستحب التفصيل ونثر الجزئيات ، لتستوعب الموقف وتستنفد الشعور .

ويطل على نفوره من الحشو ما عبر به الصفدي بعد ذكره خبر « الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، وقد أحضره الى القاهرة تاجر كان يحسن اليه وهو في رقه ، فلما باعه تنقلت به الأيام الى ما صار اليه . وافتقر التاجر فيما بعد ، فحضر إليه بالديار المصرية وكتب له رقعة فيها هذان البيتان :

كُنّا جميعَيْنِ في بُؤْسٍ نُكابِدُهُ والقَلْبُ والطَرْفُ منّا في أذًى وقَذى

---

(١) الغيث ١ / ١١٢

والآنَ أقبلتِ الدُّنيا عليكَ بما تهْوَى فلا تنْسَني إنَّ الكِرامَ إذا

إشارة الى البيت المتقدم :

إنَّ الكِرامَ إذا ما أيْسَرُوا ذكَروا مَنْ كانَ يألفُهُمْ في المَنْزلِ الخَشِنِ

« قلت : وهذا عندي أشرف من التضمين الكامل ، وأطرب للفهم وأعذب للسمع . وفيه من البلاغة حسن التضمين مع ما في ذلك من الاختصار الذي هو من أشرف أنواع البلاغة ، لأنه يرفع عن المخاطب مؤنة الإصغاء وقرع السمع بما هو محفوظ مقرر في الذهن [1] » .

وهكذا يرى الصفدي في مثل هذه الإشارات المعبرة واللمحات المؤدية طرباً للفهم ، لما أحدثه من إثارته وإطلاق كوامن قدرته ، وعذوبةً للسمع بما أوحاه لصاحبه من احترام له واعتراف بحسن فهمه وتذوقه وإدراكه .

وكما يرتع ذوق الصفدي في رياض الشعر ؛ فإنه كما رأينا لا يرى بأساً من تنسم عبير ما راق من زهرات النثر بمثل قوله :

« وما أطربُ لشيء كطربي لاستعارات القاضي الفاضل رحمه الله في مثل قوله : وتلك الجبهة وإن كانت غريبة ، فإنها مستودع الأنوار وكنز دينار الشمس ومصب أنهار النهار » وقوله « في ليلة جمد خمرها وخمـد جمرها ، الى يوم تود البصلة لو ازدادت قميصاً الى قمصها والشمس لو جرت النار الى قرصها [2] » .

كما يبدي إعجابه في كل مناسبة بسمو التعبير القرآني وغنى ألفاظه بما تغنيه وتوحيه وتخلفه من الأصداء الرحبة . فمنها « وقوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١٣٥

(٢) « « ١ / ١٨٤

أو في ضلال مبين) وفيه لطيفة ، وذلك أنه أتى بعلى للهدى وبفي للضلال ، لأن صاحب الهدى والحق كأنه مستعل على ما هو عليه ، كالجواد يركض كيف شاء ، وصاحب الضلال والباطل كأنه منغمس فيما هو فيه ، ورأسه منخفض لا يدري أين يتوجه . وهذا من لطائف القرآن وغوامض معانيه [1] » .

لكن جولته بعيداً عن الشعر لا تعدو أن تكون التفاتة سريعة ، يعود بعدها الى القريض الذي يعيش به مرجّعاً وقارئاً ، ويتنفس في أجـــوائه متذوقاً وناقداً ليقول :

« وما أحسن الفاء التي تكررت في قول الشنفرى :

بِعَيْنِي مَنْ أَمْسَتْ فباتَتْ فَأَصْبَحَتْ فَقَضَتْ أُموراً فاسْتَقَلَّتْ فوَلَّتِ » [2]

وليت الصفدي لم يكتف بهذا الاستحسان وحده ، ولو أنه مثير يطلق التذوق في آفاق الخيال الرحبة ، بل ليته تغلغل أكثر ليقول إن هذه الفاء روح المشهد كله ، بعثت دفقة الحياة فيه ، فكأنها خطوات فاتنة الشنفرى هذه ولفتاتها وحركات كل جارحة فيها في كل ما صنعت ، فهي بحق نبضة الحياة تسري في كل حركة من حركاتها ، وترافقها منذ أن أمست الى أن تولت وغابت عن الأنظار . كما تدل هذه الفاء كذلك على ملازمة تتبعه لأدق حركاتها ، بقلب واجب ، ونفس تفيـــض بالحسرة والإعجاب .

« وقال ابن صُرَّدُر :

قَوْمٌ إذا حَيَّ الضُّيُوفُ جِفانَهُمْ رَدَّتْ عَلَيهِمْ أَلْسُنُ النِّيرانِ

---

(١) الغيث ١/٢١٢

(٢) « ١/١٩٤

« وهذه استعارة أخرى هي أكمل ، لأن في النار من اللسان شيئين وهما : الشكل الشبيه باللسان ، والزفير الشبيه بالتصويت [1] » .

وسمو هذا الذوق عند الصفدي لم يكن يأبى عليه استساغة أدب عصره ، شعره ونثره ، بما اكتسى من أثواب الصنعة والتكلف والبديع ، تلك الأثواب الصفيقة المزركشة على حساب المعاني ، ليختنق تحتها في غالب الأحيان كل معنى أو شعور .

بيد أن للصفدي في شعر عصره هذا موقفاً واضحاً ، يقوم على تحقيق اللذة الحسية ، لكنه لا يقبل أن يكون ذلك على حساب المعنى ، بل إنه ليطالب بأن يكون تحقيق وجه من وجوه البديع مثلاً بغية خدمة المعنى أو الشعور ، في إغناء أو زيادة تأثير مع انتفاء ما يدل على التكلف . والنص الآتي للصفدي ، يحدثنا في هذا بما يكشف لنا عن ذوقه حيال نتاج عصره الأدبي فيقول :

« والجناس وإن كان من أنواع البديع لكن بعض صوره مستثقل . كقول ابن الفارض من قصيدة :

أَما لَكَ عن صَدٍّ أَما لَكَ عن صَدِ ... لِظَلْمِكَ ظُلْماً منكَ مَيْلٌ لِعَطْفَةِ

فَرُحْنَ بِحُزْنٍ جازعاتٍ بُعَيْدَما ... فَرِحْنَ بِحَزْنِ الجِزْعِ بي لشَبيبتي

« فانظر الى استثقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف في صد وصد ، الأول من الصدود والثاني صدٍ أي عطشان . وفي ظلم وظلم ، الأول الظلم بالفتح وهو الريق ، والثاني بالضم وهو الجور ، مع التقـــديم والتأخير الذي يحتاج الى إقليدس حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم . والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة عن صد ، أما لك ظلماً منك عن صد لظلمك .

---

(١) الغيث ١ / ٢٥٣

« فأما لك الأولى مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ، وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب .

« وأما البيت الثاني ففيه فرحن مرتين . الأولى الفاء فاء العطف ، ورحن فعل ماض من الرواح لجماعة الإناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الإناث أيضاً . والراء في الأولى مضمومة وفي الثانية مكسورة .

« وفيه الحزن مرتين . الأولى بضم الحاء ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الأرض ضد السهل .

« ولهذه الألفاظ التي عقدها عقد الميزان لأجل الجناس ، صار كلامه وحشياً من العوام بل من بعض الخواص الذين لم يتمهروا في الأدب ، وهذه الأشياء لا يخفى على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستثقال ، ولم أقل هذا الكلام جهلاً بمقدار الشيخ شرف الدين ابن الفارض رحمه الله ، وأنه لم يكن من الفصحاء .

« ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس ، مثل الميميتين والجيمية واللامية والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها » .

« والجناس إذا كثر في الكلام مُلّ ، اللهم إلا أن يكون سهل التركيب ليس على المتكلم فيه كلفة ، كما حكي عن بعض جواري المعتمد ابن عباد ، أنها قالت وهما في سجن أغمات يا مولاي لقد هُنّا هُنا . فقال المعتمد :

قالَتْ لقدْ هُنّا هُنـا   مولايَ أَيْنَ جاهُنا
قُلْتُ لها إلهُنـا   صَيَّرَنَا إلى هُنا » [1]

وواضح من هذا النص أن شروط الصفدي لتقبُّل صنعةٍ ما في الشعر ، لا يستطيعها إلا شاعر موهوب قدير ، قد غلب عليه طبعه فتأتي وجوه البديع لا لتزين الكلام ، بل لتقوم بدورها في أداء ما قصد الشاعر للتعبير عنه .

---

(١) الغيث ٢ / ٣٦ - ٣٧

لذا فان الصفدي عندما احتاج الى مثال يجسد فيه كلامه ، لم يجده إلا عند أمثال المعتمد ابن عباد ، وهو في حال من البؤس ، تغمره فيها أمواج عاتية من الألم والشقاء ، لا تسمح له بالتظرف في قوله ، أو التكلف فيما يترجم به عما جاش في نفسه من شعور .

وإذا أردنا أخيراً أن نتعرف الى ذوق الصفدي من خلال مختاراته ، فلن نبتعد كثيراً وقد مر بنا - فيما عرضت له من نصوص - مختارات كثيرة دالة ؛ إضافة الى أنه كان يشير في أثناء كتبه الى ما يستحسنه من شعر الشعراء .

من ذلك قوله في إشارة سريعة « ويعجبني أبيات الحطيئة وإن كان فيها طول وطاوي ثلاث [1] . . » وهذه القصيدة إن هي إلا مجموعة من المشاهد النابضة بالحياة ، تتحرك فيها شخصياتها ماثلة للعيان ، وقد أخذ كل منهم سمته المميزة له ، عبر عنها فيما ألقاه الحطيئة على لسانه ، فكانت في النهاية قصة من واقع الحياة والصحراء .

والحق أن إعجاب الصفدي بتصوير المشاهد الحية لم يكن بدعاً في إشارته هذه ، بل لقد ردد ذلك أكثر من مرة ، قرنه هناك بما يظهر إعجابه بقدرة الشاعر على تصوير الحركة بما سيرد في حينه .

كما كان من مختاراته التي طرب لها قول ابن خفاجه في معرض حديثه عن استخدام الأدباء للألوان فقال :

« والعَلَم المشهور في هذا قول الحريري في المقامة الثالثة عشرة : فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر ، اسود يومي الأبيض ، وابيض فودي الأسود ، حتى رثى لي العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر [2] » .

---

(١) الغيث ١ / ٢٥٣
(٢) » ١ / ٢٢٦

وقول ابن خفـــاجه :

لقد جُبْتُ دونَ الحيِّ كلَّ تَنوفَةٍ ... يَحُومُ بها نَسْرُ السَّماءِ على وَكْرِ
وخُضْتُ ظَلامَ اللَّيلِ يَسْوَدُّ فَحْمَةً ... ودُسْتُ عَرِينَ اللَّيْثِ يَنْظُرُ عن جَمْرِ
وجِئْتُ دِيارَ الحَيِّ واللَّيْلُ مُطْرِفٌ ... مُنَمْنِمُ ثوبِ الأُفْقِ بالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
أَشِيمُ بهـــا بَرْقَ الحَدِيدِ وربَّما ... عَثَرْتُ بأَطْرافِ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
فلَمْ أَلْقَ إلاَّ صَعْدَةً فوقَ لَأْمَةٍ ... فَقُلْتُ قَضيبٌ قد أَطَلَّ على نَهْرِ
ولا شِمْتُ إلا غُرَّةً فوقَ أَشْقَرٍ ... فَقُلْتُ حَبابٌ يَسْتَديرُ على خَمْرِ
فَسِرْتُ وقَلْبُ البَرْقِ يَخْفِقُ غَيْرَةً ... هُناكَ وعَيْنُ النَّجْمِ تَنْظُرُ عن شَزْرِ »[1]

ونختم الكلام حول ذوقه ومحاولة الكشف عن مختلف جوانبه ، بما كان من مختاراته النثرية في الرد على ابن الأثير بقوله :

« قال (ابن الأثير) ومن ذلك ما ذكرته في ذم الدنيا . وهو :

« أنكاد الدنيا مشوبة بالأشياء التي جبلت النفوس على حبها ، وكل ما تستلذه الأبدان من مأكلها فإنه يضرها من جهة طبها ، ولهذا تذمّم من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج ، وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الإنسان بشيء من لذتها إلا ضرته من جهة ثوابه ، فهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لأثوابه . . . وقد ضُرب لذلك مثل من الأمثال وقيل : إن كل ما ينفع الكبد مضر بالطحال » .

(ويعلق الصفدي على هذا فيقول) :

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٣٣

«انظر الى هذه الركة والعامية ، ألا تراه أشبه شيء بكلام العجائز قوابل النساء اذا أخذن يعظن ويضربن الأمثال ، أكـذا توصف الدنيا في حالة الذم .. أتراه ما سمع بشيء من كلام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه إذ قال له رجل: صف لنا الدنيا . فقال ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عذاب ، من استغنى فيها فُتن ، ومن افتقر حَزِن .

«ولا بشيء من أقوال الحكماء فيها كقول بعضهم : الدنيا أمل بين يديك ، وأجل مطل عليك ، وشيطان فتـــان ، وأمانٍ جوارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وتدعوها فتخيب .

«أما سمع بزهديات أبي نواس التي منها :

وما ألنَّاسُ إلاَّ هالكٌ وابنُ هالكٍ ... وذو نَسَبٍ في الهالِكينَ عَريقِ

إذا امْتحَنَ الدُّنيا لَبيبٌ تَكشَّفَتْ ... لهُ عَنْ عُدُوٍّ في ثِيابِ صَديقِ

«حتى إن الرشيد أو المأمون قال : لو وَصَفت الدنيا نفسها ما وصفت بأكثر من قول أبي نواس . أما سمع بشيء من أقوال أبي العتاهية وصالح ابن القدوس ومحمود الوراق ومن تعرض لذمها من الشعراء كالمتنبي وأبي تمام وغيرهما . أما سمع بقول الزمخشري ... أما وقف على رسائل المعري في ذم الدنيا ... وبقـــول ابن الشبل البغدادي ... أما وقف على الخطب النُّباتية ورأى كلامه فيها ... حتى يقول المليلج واللوزينج والكبد والطحال ..[1]» .

وجدير بالذكر أن الصفدي هنا تناول نماذجه من أرفـــع مصادرها وأسمى نصوصها ، فلم يعرج على شيء من إنتاج عصره على غزارته ، مجاراة لذوقه ، وإدراكاً منه لما كان عليه هذا الإنتاج من التخلف والتقصير .

---

(١) نصرة الثائر ص ١١٩

غزارة محفوظ الأدبي :

قد يتبادر الى الذهن أن من نافلة القول الكلام في المحفوظ الأدبي عند ناقد ما ، وليس الاطلاع الأدبي فحسب ، فإذا تذكرنا أن المقاييس النقدية في أمة من الأمم إنما تستقى من آثارها الأدبية الرفيعة ، أدركنا أهمية اطلاع الناقد على أدب أمته ، وإتقانه لما سما من نصوصها وآثارها ، ليقيم بذلك أحد الركائز الأساسية التي تؤهله للتصدي لأدبها بالدراسة والنقد وملاحظة الظواهر المتجددة .

ولو أردنا بالتالي أن نختصر الجهد لاستطعنا أن نتعرف الى ما يحفظه الصفدي من تراث الأدب العربي الغزير ، من خلال معرفتنا لجوانب ثقافته التي صرح فيها بالعلوم التي يوصي المتأدبين بإتقانها أو الإلمام بها . ومنها ما يتعلق بالنصوص « حفظ جانب جيد من شعر العرب والمخضرمين والمحدثين وفحول المتأخرين ، وحفظ جيد الحماسة ومختار المفضليات وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون ، وحفظ جانب جيد من المقامات والخطب النشّاتية ، وبعض ديوان المتنبي وأبي تمام والبحتري وسقط الزند وغير ذلك [٢] »

لكنّ ما سنحصّله من المعرفة من هـذا السبيل ستكون قاصرة لأن الادعاء غير الواقع من جهة ، ولأن غايتنا أبعد من ذلك من جهه أخرى . فغايتنا هي الكشف عن محفوظه ذاك ، من نواحي النوع والمستوى الفني بالكم ، ثم مدى استفادته من هذا المحفوظ وتحريكه في مجال نشاطه في دراسة الأدب ونقده .

ولمَ نتلكأ في هذا والنصوص الدالة لا تحصى في كتبه كثرة ، وهذه بعض نماذج منها نلمس فيها ما قصدنا اليه .

« قال (ابن الأثير) وكذلك جاء قول بعض المغاربة في الخمر وكأسها وهو :

---

(١) نصرة الثائر ص ٦٤

ثَقُلَتْ زُجاجاتٌ أَتَتْنا فُرَّغاً حتّى إذا مُلِئَتْ بِصِرْفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فكادتْ أنْ تَطِيرَ بما حَوَتْ وكذا الجُسُومُ تَخِفُّ بالأَرواحِ

«وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكراً ، ويرق كما رقت لطفاً ويفوح كما فاحت نشراً».

ويعقب الصفدي على هذا ناثراً أمامنا مجموعة من الأشعار من صوب محفوظه مما قيل في هذا المعنى فيقول :

«هما لأبي علي إدريس اليماني وأصل المعنى لابن المعتز حيث قال :

وَزَنَّا ٱلْكأْسَ فارِغَةً ومَلْأَى فكانَ ٱلْوَزْنُ بَيْنَهُما سَوَاءَ

«ولكنه زاده مبالغة وهي أن الكؤوس استفادت بالخمر خفة ، ثم إنه أراد لذلك مثالاً في الخارج فلم يجده إلا في الروح والجسم .

«ولابن حمديس هذا المعنى بعينه فإنه قال :

وَكَأْسٍ نَشْوانَ فيها ٱلشَّمْسُ بازِغَةٌ بَاتَتْ تُديمُ إلى الإصْباحِ لَثْمَ فَمِهْ
تَخِفُّ مَلْأَى وتَعْطي الثِّقْلَ فارِغَةً كالجِسْمِ عندَ وُجودِ الرُّوحِ أو عَدَمِهْ

«وقال أيضاً :

جَامٌ تُجَمِّعُ شُرْبُهُ لَذَّاتِنا وعُقولُنا بالسُّكْرِ مِنْهُ تَبَدَّدُ
ويَخِفُّ مَلْآناً ويَثْقُلُ فارِغاً كالجِسْمِ يُعْدَمُ روحُه أو يوجَدُ

«على أن ابن حمديس أتى بالمعنى كاملاً في بيت واحد ، وإدريس اليماني إنما أتى به في بيتين ولكن نظم إدريس أعلق بالقلب وأوقع في النفس وأعذب في السمع .

« وقريب من هذا المعنى قول أبي العلاء المعري في اللزوميات :

لم يَكُنِ الدَّنُّ غيْرَ نُكْرٍ سُلافَةُ ٱلرّاحِ عرَّفَتْهُ
كآدَمٍ صيغَ من تُرابٍ ونفْخَةُ الرُّوحِ شرَّفَتْهُ

وكلاهما تسلق على هذا المعنى ونقله الى الثقل والخفة والا فهو هو [1] » .

وننتقل مع الصفدي في محفوظه الى وصف الأزهار ، إذ يثيره ابن الأثير بما كتبه في وصف اللينوفر ، فينبري له الصفدي تحف به نصوصه في هذا المعنى ، ليتدفق بما يحيا في ذاكرته منها ، وأغلبه هذه المرة من شعر المتأخرين ، لأن وصف اللينوفر والأزهار بعامة مما لم يطرقه شعراء العصور المتقدمة فيقول :

« ومن طريف ما جاء للشعراء في اللينوفر قول الخبز أرزي :

خافَ المَلالَ إذا طالَتْ إقامَتُهُ فصارَ يَظْهَرُ أحياناً ويَحْتَجِبُ
كأنَّهُ حينَ يَبْدُو من مَطالِعِهِ صَبٌّ يُقَبِّلُ حِباً وهو يَرْتَقِبُ

« وما أحسن قول مجير الدين محمد ابن تميم :

غدا اللَّيْنوفَرُ المُصْفَرُّ يَحْكي النُّجومَ فَلا يُغادِرُها شَبيها
تَغوصُ ٱلْعَيْنُ فيهِ إذا تَجَلَّى النَّهارُ وفي الظَّلامِ يَغوصُ فيها

« وقد استخدم العين هنا في معنيين : أولها العين الباصرة ، والثاني العين الجارحة .

« وقول ابن حمديس الصقلي :

إِشْرَبْ على بِرْكَةِ لَيْنوفَرٍ مُصْفَرَّةِ الأَوْراقِ خَضْراءِ

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٢٤ وما بعدها

كأنَّما أَزْهارُها أُخْرِجَتْ أَلْسِنَةَ النّارِ من الماء

« وما ألطف قول التنوخي من أبيات :

أَلِفَ المِياهَ مُشاكِلاً بلطافةٍ حتى يُفارِقَ شَكْلَهُ لم يَصْبِرِ
فَيَقومُ طَوْراً ثم يَرْفَعُ رأْسَهُ بتَخَنُّثٍ وتأَوُّدٍ وتَكَسُّرِ
وكأَنَّهُ في الماءِ صاحِبُ مَذْهَبٍ أَغْراهُ وَسْواسٌ بأَنْ لم يَطْهُرِ

« وقول الآخر :

كأنَّ لِيْنوفَرَها عاشِقٌ نهارَهُ يَرْقُبُ وَجْهَ الحَبيبْ
حتّى إذا اللَّيْلُ بدا سِجْفُهُ وانْصَرَفَ المَحْبوبُ نَحْوَ الكَثيبْ
غَمَّضَ عَيْنَيْهِ عسى أنْ يرى في النَّوْمِ مَنْ فازَ بهِ عَنْ قَريبْ

« وبالغ الآخر في الظرف حين قال :

وكأَنَّهُ إذْ غابَ وَقْتَ مَسائِهِ في الماءِ واحْتَجَبَتْ نَضارةُ قَدِّهِ
صَبٌّ يُهَدِّدُهُ الحَبيبُ بِهَجْرِهِ ظُلْماً فَغَرَّقَ نَفْسَهُ مِنْ وَجْدِهِ

« وقال الوجيه ابن الذروي يهجو اللينوفر المصري :

ولِيْنوفَرٍ أَبْدَى لنا باطِناً لهُ مَعَ الظّاهِرِ المُخْضَرِّ جَمْرَةَ عَنْدَمِ
فَشَبَّهْتُهُ لما قَصَدْتُ هِجاءَهُ بِكاساتِ حَجّامٍ بها لَوْثَةُ الدَّمِ » [1]

(١) نصرة الثائر ص ٢٣٠ وما بعدها

لَقدْ وَجَبَتْ عليكِ زَكاةُ حُسْنٍ وفيهِ كَمِثْلِ ما في المالِ حَقُّ
فلا تَعْدِلْ بِه عَــنّي فإنّي لِمَصْرِفـهِ الْفقيرُ المُسْتَـحِقُّ

« أما سمع بقول جميل ابن معمر العذري :

لا خَيْرَ في الحُبِّ وقْفاً لا تُحَرِّكُهُ عَوارِضُ الْيأْسِ أَوْ يَعْتادُهُ الطَّمَعُ
لو كان لي صَبْرُها أو عندَها جَزَعي لَكُنْتُ أَعرِفُ ما آتي وما أَدَعُ

« وقول أبي الطيب :

وأَحْلَى الهوَى ماشَكَّ في الوَصْلِ رَبُّهُ وفي الهجْرِ فَهْوَ الدَّهْرَ يَخْشَى ويَتَّقي

« وقول كشاجم :

لولا اطّرادُ الصَّيْدِ لم تَكُ لَذَّةٌ فَتَطارَدي لي بالوِصالِ قليلا
هذا الشَّرابُ أَخو الحَياةِ ومالَه مِن لَذَّةٍ حتى يُصيبَ غَليلا

« وقول العباس ابن الأحنف :

وأَحْسَنُ أَيّام الهوَى يومُكَ الذي تُرَوَّعُ بالهِجْرانِ فيه وبالعَتْبِ
إذا لم يَكُنْ في الحُبِّ سُخْطٌ ولا رِضَى فأَيْنَ حَلاواتُ الرَّسائلِ والكُتْبِ

« وقول عُلية بنت المهدي :

وُضِعَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلو أَنْصفَ المَعْشوقُ فيه لَسَمِجْ
ليسَ يُسْتَحْسَنُ في شَرْعِ الهوَى عاشِقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ

« أما سمع بقول محمد ابن بشير الخارجي :

ولقد أَرَدْتُ الصَّبْرَ عَنْكِ فَعاقَني عَلَقٌ بقلبي من هَواكِ قَديمُ

يَبْقى على رَيْبِ الزَّمانِ وصرْفِهِ وعلى جَفائكِ إنَّهُ لَكَرِيمُ

« وما أحسن قول العباس ابن الأحنف حين عنف أحبابه على المطل بالوصل :

كأَنْ لمْ يَكُنْ بيني وبَيْنَكُمْ هوى ولَمْ يَكُ مَوْصولاً بِحَبْلِكُمْ حبلي

وإنّي لأَسْتَحْيي لَكُمْ مِنْ مُحَدِّثٍ يُحَدِّثُ عَنْكُمْ بالمَلالَة والمَطْلِ

« ومما قلت أنا :

وإذا تَهَتَّكَ في الهوَى سِرّي غدا وتَحَدَّثَتْ بِصَبابَتي ٱلسُّمّارُ

أوقيلَ ذا المِسْكينُ أَضلَّ جُنُونَه سِحْرُ العُيونِ ومَا لَهُ أنصَارُ

أَيَحِلُّ في شَرْعِ الهوَى هذا؟ ومَنْ أَفْتَى بأَنَّ دَمَ المُحِبِّ جُبارُ

وعَلِمْتِ أنَّ هَواكِ أَصلُ بَلِيَّتي فَعَلَى صُدُودِكِ لا عَلَيَّ ٱلْعارُ

« أما سمع بما قنع به المجنون مثل جميل حيث يقول :

وَإنّي لَراضٍ منكِ يا بُثْنُ بالذي لوَ أَيْقَنَهُ الواشي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ

بِلا وبِأَنْ لا أَسْتَطيعَ وبالمُنى وبالوَعْدِ حَتّى يَسْأَمَ الوَعْدَ ماطِلُهْ

وبالنَّظْرَةِ ٱلعَجْلَى وبالحَوْلِ تَنْقَضي أواخِرُهُ لا نَلْتَقي وأَوائِلُهْ

« وجحدر حيث يقول :

أَلَيْسَ ٱللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو وَإيّانا فَذاكَ بِنا تَدانِ

وَتَنْظُرُ لِلْهِلالِ كما أَراهُ ويَعْلُوها ٱلنَّهارُ كما عَلاني

« والآخر حيث يقول :

إلى ٱلطَّائِرِ ٱلنَّسْرِ أنْظُري كُلَّ لَيلَةٍ … فإنّي إليهِ بالعَشيَّةِ ناظِرُ
عسى يَلْتَقي طَرْفي وطَرْفُكِ عِنْدَهُ … فَنَشْكُو جَميعاً ما تُجِنُّ الضَّمائِرُ

« وأبي العلاء المعري حيث يقول :

لاقاكِ في ٱلعامِ الذي وَلّى وَلَمْ … يَسْأَلْكِ إلّا قُبلَةً في القابِلِ
إنَّ ٱلبَخيلَ إذا تَمُدُّ لهُ المَدَى … في الجُودِ هانَ عَليهِ بَذْلُ ٱلنّائلِ »(١)

والصفدي لم يأت بهذه النماذج كلها لمجرد أنها في الغزل فحسب ، ولكنه أتى بها ليدلنا على المصدر الذي انتزع منه ابن الأثير ما ساقه في رسالته من معان مرصوفة ، بعد أن جرده من الإيجاز الموحي والمجاز المعبر .

كما كان من غاية الصفدي كذلك أن يترك لنا الفرصة للمقارنة وإدراك البون بين أداء الشاعر المعنى ـ وقد نفخ فيه من شعوره وحرارة وجده ورشاقة عبارته ـ وبين استخدام ابن الأثير لهذا المعنى ، بعد أن حوله إلى جسد هامد وعبارات جافة .

وجدير بالذكر أن الصفدي في مختاراته ونقده خير منه في شعره . وقد يكون من أسباب ذلك ما ذكره ابن حجة (٢) حيث قال فيه : « إن الشيخ صلاح الدين ـ سامحه الله ـ كان من المكثرين ، وكان هو والشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة يرضيان لرغبتها في الكثرة بالأشياء الرخيصة » .

وإني وإن رأيت الالتفات إلى هذا أشير فأقول بأن مثل هذا لا يغض البتة من منزلة الناقد ؛ إذ لا يشترط في ناقد الفن أن يحسن أداءه . علماً بأن عناصر الشاعرية لم تعزُب عن الأديب الصفدي مما لا مجال هنا للكلام فيه .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٤٧ وما بعدها
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٩

وهنا أجد من المناسب الاكتفاء بما عرضت دليلاً على غزارة ما زخرت به حافظة الصفدي ، من مختارات أدبية في القريض والنثر ، لأن وفرة هـذا المحفوظ تتبدى للقاصد في كل النصوص التي عرضتها وأتعرض اليها فيما يلي ، ليس تحت هذا العنوان فحسب ، بل في كل فصول الدراسة القائمة .

تواضع :

إذا كان العُجب والكِبْر مما أساء ابن الأثير ، ووصم الكثير من أقواله وآرائه بالهوى والانحياز إلى النفس إعجاباً بها ، ومجانبة الصواب في عدم استعداده الإصغاء الى غيره ، أو الالتفات إلى قوله أو الاعتراف له بحسن أو إجـــادة مع اقتباسه الدائم ، وادّعائه الكثير ؛ فإن الصفدي كان على النقيض من ذلك . وكان يعبر في كل مناسبة عن نفوره من التيه والعجب وثنائه على التواضع ، وأورد لذلك بعضاً من الأحاديث النبوية والقدسية ، كما استشهد بقول بعض الحكماء بأن « البلية التي لا يؤجر المرء عليها العُجب ، والنعمة التي لا يحسد عليها التواضع . ومما قيل : لا شيء أكتم للمحاسن من التيه والعجب [1] » .

حتى إن الصفدي كان يعترف لخصمه بالفضل ، رغم الاختلاف المذهبي العميق الذي كان في ذلك الحين شيئاً كبيراً ، إذ يقول في ابن أبي الحديد وفلكه الدائر بتواضعه المعهود « على أنني بعد ابن أبي الحديد ، كمن جاء بعد اجتحاف سيل ، وأصبح بعد قاطف النهار حاطب ليل [2] » . هذا مع يقينه التام بأن ابن أبي الحديد بروحه الجدلية الثقيلة بعيد كلية عن رياض الشعر وتذوقه والانفعال به . وقد صرح

---

(١) نصرة الثائر ص ٤٤

(٢) المصدر السابق

بذلك حين قال فيه : « والمعتزلة فرسان المباحث وممن توفرت لهم الهمم على الجدل[1] » كما أشار الى هذا حين قال : « فلما وقفت على الفلك الدائر وجدته قد أغفل كثيراً وأخذ قليلاً وترك أثيراً [2] » .

ولم يكن القليل سوى ما غلب على الفلك الدائر من مسائل الفقه والنحو والمنطق ، كما كان هذا الأثير الذي عناه ؛ إنما هو مسائل الأدب والشعر وصوره وعناصره وأساليب أدائه فالشعر في نظر ابن أبي الحديد إنما « بني على الاجتداء والطلب [3] » وأن الشاعر « يرتب المقدمتين والنتيجة وقت نظمه [4] » ويعلق الصفدي على هذه الأقوال بهدوء بأنّ « مَن جهل شيئاً عاداه [5] » ، ومع كل هذا نرى الصفـــدي لا يتردد في تفضيل شرح ابن أبي الحديد على شرحه هو لبيت المتنبي :

يا بَدْرُ يا بَحْرُ يا غَمامَةُ يا لَيثَ الشَّرَى يا حِمامُ يا رَجُلُ

بقوله : « على أن هذا التأويل ليس في قوة ما ذكره ابن أبي الحديد ولا في حسنه[6] »

وبلغ من تواضعه ، أنه قال مرة بعد أن أدرك الصواب في مناقشته مع ابن الأثير في ثقة العالِم « وما أظن بابن الأثير ـ رحمه الله ـ أنه جهل هذا ، ولكنها غفلة ليس إلا [7] » .

والحق إن صفة التواضع والمرونة لما يحمـــد في الناقد الأدبي ، فليس في

---

(١) نصرة الثائر ص ٥١
(٢) » » ص ٤٤
(٣) في المثل السائر ٤ / ٣٠٨
(٤) » » ٤ / ١٩٢
(٥) نصرة الثائر ص ١٨٧
(٦) » » ص ٢٨٨
(٧) » » ص ١٣٨

مسائل الأدب وتذوقه حدود قاسية ، وقواعد ثابتة ، وأحكام لا تقبل الرد ، فما أكثر ما تتغير الحقائق الأدبية التي يظن لها الخلود مع اكتشاف قول أو العثور على قصيدة أخفاها غبار السنين . كما أن في إصغاء الناقد لما يصل اليه غيره قد يوقفه على أمر طال فيه تردده . أو تفسير لحقيقة أدبية أدنى الى الصواب مما رأى .

تجرده الفني :

وتأتي صفة التجرد الفني عند الصفدي ملازمة لطبيعة التواضع الآنفة ، وتواضع المرء لا يسمح له بتنكب الصواب جرياً وراء الهوى وسعياً لفرضه ، هذا مع الاعتراف بتباين الأذواق ودورها في اختلاف الأحكام على النصوص ، وهذا لا ينفي القدر المشترك من الذوق العام من جهة ، ووجود عناصر ملموسة في النصوص . للعقل دوره في مناقشتها وتقويمها من جهة أخرى .

والأمثلة كثيرة على ما تمتع به الصفدي من نزاهة وتجرد في ممارسة النصوص والحكم فيها . من ذلك ما قاله عند حديثه عن المثل السائر بأنه « من الكتب التي خفقت له في الاشتهار عذبات أوراقه ، وسعى القلم في خدمته على رأسه إذا سعى الخادم على ساقه . واشتهر بين أهل الإنشاء ، اشتهار الليل بالكتمان والنهار بالإفشاء ، لا بل اشتهار بني عذرة في الحب بتحرق الأحشاء . وأولع به أهل الأدب في الآفاق ، ولع الكريم بالإنفاق ، لا بل ولع الرقباء بالعشاق [1] » .

وربما لا يكون النص السالف كافياً للدلالة على التجرد الفني ، لأنه إنما يتحدث عن كتاب اشتهر في عصره وخاصة بين الأوساط الأدبية ، وتصدر العقل للحكم

---

(١) نصرة الثائر ص ٤١

عليه مستفيداً من العناصر الحسية التي تؤلف الرأي في هذا الكتاب ، وليس من الضروري أن يكون المرء في هذه الحال ناقداً .

ومهما يكن من أمر فان رأي الصفدي هذا لا يخلو من دلالة ناصعة على بعده عن التعصب في أحكامه عامة .

فلا بد على أية حال من نص أدبي نختاره ، مما كتب ابن الأثير نفسه . من ذلك قوله في وصف كلام بالفصاحة « وإذا اختصر واصفه قال : إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخف وقار القلوب ». ويعلق الصفدي قائلاً « إذا كان يستميل سمع الطروب فما في هذا كبير مدح ، وذلك أن صيغة فعول مبالغة فيمن يطرب ، ولا يقال طروب إلا لمن يميل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نغمة ، مثل أكـــول وشروب لكثير الأكل والشرب لما يمر به .

« وإذا كان الذي يميل إلى الطرب ويتكرر منه ذلك يطرب لهذا الكلام فما في هذا مزية توجب مدحه . ولهذا قيل : المستعد للشيء يكفيه أدنى سبب . وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب » .

الى هنا والصفدي كما ترى يفصل القول في بيان خطأ المعنى ، وسوء مدلوله في المديح ، فإذا انتقل مع ابن الأثير إلى العبارة الثانية ؛ سارع الرضا الى محياه فكأنما عثر على ضالته ، فعبر عن ذلك بقوله : « كما قال في الثانية (ويستخف وقار القلوب) فان هذا هو المدح المعهود » .

ولم يكتف برضاه عن العبارة فحسب ؛ بل دفعه طربه لها الى الاستمرار في الحديث عليها والدفاع عنها بقوله « فإن قلت هذا يرد على البحتري في قوله :

مُستَميلٌ سَمْعَ الطَّروبِ المُغَنَّى عن أَغانيِّ مَعْبَدٍ وعَقيدِ

قلت : هذا مما يؤيد ما قلته ، لأنه قال : يستميل سمع الطروب المغنى عن

سماع ألحان معبد وعقيد اللذين هما أصل الغناء ، وإذا كان يلفت من بهذه الصفة عن لذته الى سماعه كان ذلك مدحاً . فهو من باب يستخف الحليم ويصبي الناسك .

« وما خلص هذا للبحتري إلا بقوله عن أغاني معبد . ولو قال ابن الأثير يستميل الطروب عن أغانيه بفصاحته لما أوردت عليه هذا الإيراد [1] » .

ولا أجد ضرورة للاستزادة من عرض النماذج ، إثباتاً لما عرف به الصفدي من بعد عن التعصب ، لأنه إذا كان على هذا المستوى السامي من النزاهة والتجرد ، وهو حيال نص لخصمه الذي وضع كتابه من أجله ، فما بالك حينما يعالج غيرها ، أعتقد جازما أنه لا يتغير ، لأن حاسته المميزة المتذوقة لا يتغير موقفها بتغـــير صاحب النص ، والنموذج المعروض أعلاه أوضح ما يمكن أن يستدل به على تجرد الصفدي الناقد ، لوجه الفن وحده .

منهجه في النقد :

لقد أدرك الصفدي أهمية النقد في الأدب وإنتاجه ، وأدرك كذلك أن الذوق هو أول ، ما يجب توفره عند من يدخل هذا الميدان ، بلي ذلك بالضرورة الدراية والمران والرياضة ، حتى يغدو صاحبُ الذوق هذا قديراً في تعمـــق النصوص ، والوصول الى أغوارها ، وإدراك أسرارها ، مدفوعاً الى ذلك بميل لا يقاوم ، وهوى الى ممارسة النصوص لا يعوقه عائق .

وقد عبر الصفدي عن هذه الحقائق الأولية في خطبة كتابه بقوله « أحمده على نعمه التي أوضحت ما أبهم وألبس ، وأبدت نار الهدى التي لم تكن بسوى أنامل الذوق تقبس ، وراضت جواد الانتقاد الذي إذا أمَّ غاية لم يثن عنانه ولم يحبس [2] » .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٢٤ وما بعدها

(٢) » » ص ٤١

اعتماده النصوص والمقارنة بينها :

وقد قلنا في مناسبة مضت ، إن الصفدي قلما تحدث في النقد حديثاً نظرياً ، فروحه تأبى القواعد وتنفر منها ، وإنما يتحدث من خلال النصوص المختارة في المعنى الواحد أو الشعور المشترك ، فيجمعها على تباين عصورها ، ويقوم التمييز على المقارنة فيما بينها ، وهذا لعمري منهج رائع ؛ بل إنه المنهج الفني السليم في اكتناه النصوص وتذوقها وملاحظة خط التطور فيها من جهة ، وتقريبها الى أفهام الآخرين وأذواقهم ووضعها في محيط تجاربهم الاجتماعية والشعورية الخاصة من جهة أخرى .

وقد قام الصفدي بالتقديم لمنهجه هذا في أول كتابه كذلك ، فقال مشيراً إلى ابن الأثير « وإذا ناقشته في بحث أورده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن الذين عابهم ، وتردد الى مواقف ذمهم وانتابهم [1] » ، وقد قام فعلاً بتطبيق منهجه هذا تطبيقاً دقيقاً ، فلم يشذ فيه مرة واحدة ، والسبب في هذا ليس يقظته وحرصه على تحقيق ما وعد به لولا أن هذا المنهج يعيش في نفسه فطرياً طليقاً ، ولم يصل إليه بطريق العقل والقاعدة .

فالنصوص عنده هي التي تتحدث ، تتلاقى وتتجاور ، فيبرز الحسن من تلاقيها ، وسر الجمال من جوارها ، وسحر البيان من هذه المقارنة التي تقوم بينها ، من غير قصد اليها ، ولا عناء يتجشمه القارىء في ذلك .

وأكثر ما يسوء الصفدي ، أن يقرأ عند ابن الأثير تفنيداً وانتقاداً لاذعاً في منأى عن النص محور الكلام .

من ذلك استنكار ابن الأثير لعبارة وردت عند الكاتب ابن زيادة البغدادي ،

---

(١) نصرة الثائر ص ٤١ .

دون أن يقرن حكمه بملاحظة وجود العبارة في نسيج النص . وسمع الصفدي بهذا فخف مسرعاً ليقول : « وأما قول ابن زيادة (وكل ما يستصلحه المولى على العبد حرام) فانه مناسب ، ولعله أتى به في صورة أحسن من هذه ، وجاء في أثناء كلامه مطبوعاً .

وينبه ابنَ الأثير إلى خطئه فيقول : ولم يذكر ابن الأثير ما أتى به (الكاتب) ليعلم حسنه من قبحه ، ولم يحضرني عند تعليق هذا الفصل كلام ابن زيادة ، ولعلي أظفر به فيما بعد فأثبته في الحاشية .

« وقفت على كلام ابن زيادة فيما بعد ، وكان ما ختم به فصل الإنكار على اللقب .. [1] » .

وننتقل الى نص آخر للصفدي يتضح فيه ما فات ذكره ، كما نلمح من خلال ذلك روح كل من الأديبين الصفدي وابن الأثير ، ومنهجه في دراسة الأدب ومعالجة قضاياه . وهاك هو : « قال (ابن الأثير) في النوع الثامن من التشبيه :

« وقد قيل إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ، ومن هنا غلط بعض كتاب أهل مصر ، في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له : « هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأنملة خضبها الأصيل وكان الهلال لها قلامة » .

« ثم إنه أخذ يعيب هذا ويقول : أي مقدار للأنملة أن تشبه الحصن ! وأطال باعتراض وجواب ، أقول : إن ابن أبي الحديد ناقشه في ذلك وقد بقي شيء من مؤاخذته على هذا » .

وهنا لا يدخل معه الصفدي في جدال نظري ، ليُثبت له خطأ ما قرره وقعّد له ؛ بل يسلمه لأرفع النصوص المناسبة فيقول : « فعلى هذا تبطل غلبة الفرع على الأصل في التشبيه ونخطِّيء مثل ذي الرمة في مثل قوله :

---

(١) نصرة الثائر ص ٧٧

ورَمْلٍ كأوْراكِ العَذارَى قَطَعْتُهُ   إذا أُلْبِسَتْهُ المُظْلِماتُ الحَنادِسُ

فانه شبه كثبان الرمل بما هو أقل منها وأحقر ، لأن أوراك العـذارى دون الكثبان .

« ولا نستحسن مثل قول أبي بكر محمد ابن هاشم :

والمُشْتَري وسْطَ السَّماءِ تَخالُهُ   وسَناهُ مثْلَ الزِئْبَقِ المُتَرَجْرِجِ

مِسْمارَ تِبْرٍ أصْفَرٍ رَكَّبْتَـهُ   في خاتَمٍ والفَصُّ مِن فَيْروزَجِ

فان كرة السماء والمشتري أكبر من الفص والمسمار .

« ومثل هذا كثير ؛ وكل ما كان في العالم العلوي لا يشبه بشيء من العالم الأرضي لأنه أحقر وأقل ؛ كما تشبه الثريا بالنرجس الذابل ، والهلال بالقلامة والنعل . والبرق بالسيف ، والشمس بالمرآة ، والنجوم بالسراج ، وقوس قزح بأذيال العروس . وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه ، وإن كان فلا يكون بليغاً على هذا التقرير ! وهيهات هذا سد لباب الحسن .

« وأما الحصون فقد شبهها الشعراء بالأنامل ، منهم الغزي حيث يقول :

سَدَّ البَسيطَةَ نازِلاً من قُلَّةِ الـ   ـجَبَلِ الأشَمِّ إلى قَرارِ الوادي

حتّى غدا الحِصْنُ المُبارَكُ خِنْصَراً   في خاتَمٍ من بَهْمَةٍ وجَوادِ

« وقد استعمل ابن الأثير ذلك فقـال في فصل تقدم : (فنزلنا منه بمرأى ومسمع ، واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع) .

« وقول القاضي الفاضل يشبه قول ابن خفاجه :

في خَصْرِ غَوْرٍ بالأراكِ مُوَشَّحٍ   أو رَأسِ طَوْدٍ بالغَمامِ مُعَمَّمِ

« وقال كعب الأشقري يصف حصناً :

مُحلّقةٌ دونَ السّماءِ كأنّها ... غَمامةُ صيفٍ زالَ عنها سَحابُها
فلا يَبْلُغُ الأَرْوَى شَماريخَها العُلا ... ولَا الطّيْرُ إلاّ نَسْرُها وعُقابُها
ولَا خُوِّفَتْ بالذئْبِ وِلدانُ أَهْلِها ... ولَا نَبحَتْ إلاّ النّجومَ كلابُها

(وأورد للخالدين ولغيرهما في وصف القلاع ، ولم يهمل النماذج النثرية في هذا الباب)

« وقال أيضاً في ذلك :

وحَلْقاءُ قد تاهتْ على مَن يَرُومُها ... بمَرْقَبِها العالي ومَرْكَبِها الصَّعْبِ
يَزُرُّ عليها الجوُّ جيْبَ غَمامِهِ ... ويُلْبِسُها عِقداً بأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ
إذا ما سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ من خِلالِهِ ... كما لاحتِ العَذْراءُ من خَلَلِ السُّحْبِ (١)

وبذا ترى أن الصفدي ينغمس في منهجه من حيث اعتماد النصوص الغزيرة ، لتقوم المقارنة على أوسع مدى ، فتتوسع نظرة المرء الى المعنى ، الذي يغنى في النفس وتتزاحم أحواله وتفصيلاته مما يسمح بوضع النص المدروس ، في مكانه الصحيح بين هذه النصوص الكثيرة ، السابقة منها واللاحقة .

ومن الملاحظ أن الصفدي لا يعلق بالضرورة على كل نص يورده ، فقد يذكر شيئاً أو يورد النص ثم ينتقل الى غيره ، تاركاً المجال رحباً أمام القارىء لينبه حواسه ، ويوقظ نفسه ، ويعمل فكره ، ويحكّم بعد ذلك ذوقه .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٩٧ وما بعدها

ولا أجد بأساً من إيراد صورة أخرى من صـــور تطبيق الصفدي منهجه في النقد ، مما زخر به كتابه نصرة الثائر ، دالاً على أصالة هذا المنهج عنده ، حتى إن شطراً من الشعر أو جملة من النثر ، كافية لجعل النصوص في المعنى نفسه تنثال على لسان الصفدي ، الى أن يشعر أنه قد حقق الغاية وبلغ المطلوب .

إعادة المعاني الى مصادرها :

وألفت النظر هنا الى أن الصفدي ، سيضيف الى منهجه هذا مبدأ آخر يساير منهجه في اعتماد النصوص ، وذلك في إعادة معاني النص المدروس الى مظانها الأولى ، إشارة منه الى أن أدباء عصره لم يأتوا بجديد من حيث المعاني ولو ادعوا ذلك ، وإنما هي معاني السابقين من الشعراء ، نقلها المتأخرون الى النثر من جهة ، والى أغراض اخرى من جهة ثانية .

« قال (ابن الأثير) : ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب فقلت :

والشيب إعدام لا يسار ، وظلم لا أنوار ، وهو الموت الأول الذي يُصلي ناراً من الهم أشد وقوداً من النار . ولئن قال قوم إنه جلالة فإنهم دقوا به وماجلوا ، وأفتوا في وصفه بغير علم فضلوا وأضلوا ، وما أراه إلا محراثاً للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا ، ومن عجائب شأنه أنه المملول الذي لا يستطاع فراقه ، والخلَق الذي يكره نزع برده ، ولما فُقد الشباب كان عنه عوضاً ولا عوض عنه في فقـــده .

« أقول : إنه أخذ بعد فراغه من هذا الفصل في الدندنة على العادة ، وأن المعنى الذي ابتدعه هو تشبيه الشيب بآلة الحرث .

« وقد شبه الناس الشيب بأشياء ، منها اشتعال النار ، وقد نطق القرآن العظيم به في قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » .

« وقال الأَرَّجاني :

قد أَشعلَ الشَّيبُ رأسي للبِلى عجلاً ... والشَّمعُ عندَ اشتعالِ الرَّأسِ ينسبِكُ
فإنْ يكنْ راعها من لَوْنِهِ يَقَقٌ ... فطالما راقها من لونِهِ حَلكُ

« ومنها تشبيه بالصبح قال :

وقالوا انْتَبِهْ من رَقْدَةِ اللَّهوِ والصِّبا ... فقد لاحَ صُبْحٌ في دُجاكَ عجيبُ
فقلت : أَخلَّاني دَعُوني ولَذَّتي ... فإنَّ الكرَى عندَ الصَّباحِ يَطيبُ

« ومنها تشبيه بالنجوم قال : . . .

« ومنها تشبيه بالتبسم ، قال أبو تمام :

رأتْ تبسُّمَهُ فاهْتاجَ هائِجُها ... وقالَ لاعِجُها للعَبْرةِ انْسَكِبي
فلا يُؤَرِّقْكِ إيماضُ القتيرِ بِهِ ... فإنَّ ذاكَ ابتسامُ الرَّأْيِ والأدبِ

« ومنها تشبيه بالحبب ، قال . . .

« ومنها تشبيه بالغبار ، قال ابن المعتز :

صَدَّتْ شُرَيْرُ وأَزْمَعتْ هجْري ... وصَغَتْ ضَمائِرُها إلى الغَدْرِ
قالتْ كَبِرْتَ وشِبْتَ قُلتُ لها ... هذا غُبارُ وقائعِ الدَّهرِ

« ومنها تشبيه بالسيف ، قال :

أَنا إنْ نزَعتُ عن الغوايَةِ والصِّبا ... فلطالما اسْتَهْوَتْنِيَ الآثامُ
أَصْبُو وسَيْفٌ للمَشيبِ مُجَرَّدٌ ... وقَفَتْ على رأْسي بِهِ الأيَّامُ

« ومنها تشبيه بالزهر ، قال الغزي :

تَأَلَّقَ الشَّيْبُ فاعتَذَرْتُ لهُ وقُلْتُ نَوْرٌ بدا على قُضُبِهْ
كَأَنَّ ثَغْرَ الحبيبِ رُكِّبَ في مَفارِقي فأَضاءَ مِن شَنَبِهْ

« ومنها تشبيه بالبوم والقطاة ، كقول الشافعي رضي الله عنه في أبياته التي منها :

أيا بومَةً قد عَشَّشَتْ فوقَ هامَتي على الرُّغْمِ منّي حينَ طارَ غُرابُها

« وقال الغزي :

قَطاةٌ في الهِدايَةِ كانَ شَيْبي وإنْ سَمَّتْهُ نُقْبَتُهُ غُرابا

« وشبهه السّراج الوراق بالقرطم ، وإنما حسن ذلك لأنه رحمه الله كان أشقر فقال :

ذَهَبَ العُصْفُرُ مِنّي وبَدا قِرْطِمُ شَيْبي
والتي قد مَلَكَتْ رِقّي رَدَّتْني بِعَيْبي

« وقيل لأعرابي عن الشيب : ما هذا البياض الذي في رأسك ؟ فقال : زبدة مخضتها الأيام ، وفضة سبكتها التجارب .

« وما أحسن قول القاضي الفاضل رحمه الله :

إلَيْكَ بعدَ انْقضاءِ اللَّهْوِ واللَّعِبِ عَنّي فلَمْ أَرَ بي ما يَقْتَضي أَرَبي
والعُمْرُ كالكأسِ والأيّامُ تَمْزُجُهُ والشَّيْبُ فيه قَذًى في مَوْضِعِ الحَبَبِ

« وشبه بأشياء مناسبة غير هذه ...

« ولم أر تشبيه بآلة الحرث ، وأي مناسبة بين آلة الحرث والشيب ، وما وجه

الشبه وليس هذا من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس ، ولا من باب المحسوس بالمعقول وما أدري ما هو ، وأما تشبيه الهرم بالحرث نفسه فجائز .

« وأما قوله : إعدام لا يسار فمأخوذ من قول المتنبي :

وقَدْ أَراني الشَّبابُ الرُّوحَ في بَدَني وقد أَراني المَشيبُ الرُّوحَ في بَدَلي

« وأما قوله : ظلام لا أنوار ، فمأخوذ من قول أبي تمام :

لهُ مَنْظَرٌ في ٱلْعَيْنِ أَبْيَضُ ناصِعٌ ولكِنَّهُ في ٱلْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

« وقول أبي الطيب :

إِبْعَدْ بَعِدْتَ بَيَاضاً لا بَيَاضَ لهُ لَأَنْتَ أَسْوَدُ في عَيْني من الظُّلَمِ

« وما أحسن قول الغزي :

كَيفَ لا يَنْفُرُ الظِّبَاءُ من الشَّيْـ ـبِ ومِن عادةِ الظِّباءِ النُّفُورُ
أَبْيَضٌ مُظْلِمٌ وكُلُّ بَياضٍ في سِوَى العَيْنِ والمَفارِقِ نُورُ

« وأما قوله (وهو الموت الأول) السجعة .

« قال محمود الوراق : الشيب إحدى الميتتين . وقال غيره : الشيب غمام قطر الغموم ، وأما قوله : (ولئن قال قوم إنه جلالة) السجعة ، فذكرت به قول بعض المتأخرين :

وقالوا شَبابُ المَرْءِ لَهْوٌ وغِرَّةٌ ومِنْ خَلْفِهِ شَيْبُ الوَقارِ ولا رَيْبُ
وأَيُّ وَقارٍ لامرِىءٍ عُرِّيَ ٱلصِّبا وَقُدَّامَهُ شَيْبٌ ومن خَلْفِهِ شَيْبُ

« وأما قوله (وهو المملول الذي يُشفق من بُعده) فمأخوذ من قول مسلم بن الوليد . وقول مسلم في غاية الحسن :

اَلشَّيْبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أن يُفارِقَني أَعجِبْ بشيءٍ على البَغْضاءِ مَوْدُودِ
يَمْضي الشَّبابُ فيأْتي بَعْدَهُ بَدَلٌ واَلشَّيْبُ يَذْهَبُ مفقُوداً بِمفقُودِ

« قيل : إن المنذر ابن أبي سبرة نظر الى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع . فقال له : ما أصبرك على هذا القميص ؟ فقال : رب مملول لا يستطاع فراقه ، فبعث اليه تختاً من ثياب .

« ونظر سليمان ابن وهب في المرآة فرأى الشيب فقال : عيب لا عدمناه .

« وقد جاء في ترسل الفاضل ذكر الشيب فقال : فمن يطلع شرف السبعين يهبط الى الحضيض ، ومن يعمر العمر الطويل يقع في الطويل العريض ، وأيام المشيب كلها بيض ، وما نحن ممن يصوم الأيام البيض .

« وما ألطف قول ابن المعتز :

أيَا نَفْسُ قد أَثْقَلْتِني بِذُنُوبي أيا نفسُ كُفّي عن هَواكِ وتُوبي
وكيفَ اَلتَّصابي بعدأن ذَهَبَ الصِّبا وقد مَلَّ مِقْراضي عِتابَ مَشيبي

« وما أحلى قول (ابن خلكان) :

أَلا ياسارِياً في بَطْنِ قَفْرٍ لِيَقْطَعَ في الفَلا وَعْراً وَسَهْلا
قَطَعْتَ نَقى المَشيبِ وبِنْتَ عنهُ وما بَعْدَ اَلنَّقا إلا المُصَلَّى

« ولبعض الشعراء :

ولَمَّا رَأَيْتُ اَلشَّيْبَ راءَ بِعارِضي تَيَقَّنْتُ أنَّ الوَصْلَ لي مِنْكِ واصِلُ

ربما يفهم من هذا البيت غير ما قصده الناظم ، فيتوهم أنه يظن أن الشيب سبب لوصاله وهو على خلاف المعهود من كلام الشعراء ، فإنهم ما زالوا يقولون : إن الشيب سبب نفار الغواني عن المحبين .

« وما أحسن قول خالد الكاتب في هذا :

لَمَّا رَأَتْ شَيْباً أَلَمَّ بِمَفْرِقِي صَدَّتْ صُدُودَ مُفَارِقٍ مُتَجَمِّلِ
وَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَصْلَهَا بِتَذَلُّلٍ والشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَنْ لا تَفْعَلِي

« والشاعر إنما أراد هذا المعنى المعهود ، فإن واصل ابن عطاء الغزّال رأس المعتزلة كان يلثغ في الراء لثغة قبيحة ، وكان يتجنب الراء في كلامه ، ولا تكاد تسمع منه كلمة فيها راء . . [1] » .

التعريل الفني :

كما يتخذ الصفدي في نقده مبدأ ثانياً ، يكاد يلازمه في كل ما يتعرض له من النصوص نثريها وشعريها ، ألا وهو اقتراح صياغة من عنده ، تطرب لها نفسه ، ويرضى بها ذوقه . فهذا ابن سناء الملك يقول متغزلاً :

لَهَا نَاظِرٌ يَاحَيْرَةَ ٱلظَّبْيِ إِذْ رَنَا بِهِ كَحَلٌ نَادَاهُ يَا خَجْلَةَ الكُحْلِ

ويعلق الصفدي بقوله : « لو كان لي في هذا البيت حكم لقلت : لها ناظر يا حيرة الظبي عنده ، وخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاة [2] » .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٣٣ وما بعدها
(٢) الغيث المسجم ١/٢٤٣

كما يعمد الى مثل هذا في نصوص النثر : « قال (ابن الأثير) وقد جاءني من التخلصات في الكلام المنثور أشياء كثيرة . فمن ذلك ما أوردته في كتاب الى بعض الإخوان أصف فيه الربيع ، ثم خرجت من ذلك الى ذكر الأشواق فقلت : وكما أن هذه الأوصاف في شأنها بديعة ، فكذلك شوقي في شأنه بديع ، غير أنه بحرّه فصل صيف وهذا فصل ربيع .

« أقول : قد أورد هذا الرجل من تخلصات الشعراء كأبي تمام وأبي الطيب والبحتري وغيرهم أمثلة ، وما تنبه للتخلص وحسنه . أترى مثل هذا يعد من التخلصات ! ولو كان قال : وشقيق شق كمامه ، ورفع أعلامه ، وملأ من المدام جامه ، وجلا خده الأحمر وفيه من السواد شامة ، وأوقد ناره فحكت جمر أشواقي وضرامه . لعد الناس هذا تخلصاً [1] » .

الاعتذار للأديب :

وختاماً للحديث في منهج الصفدي في النقد ؛ أشير الى مبدأ أخير اعتمده في دراسة الأدباء والحكم على قدرتهم الفنية ، ذلك هو الاعتذار للأديب إذا كبابه جواد البيان في بعض الأحيان .

من ذلك قوله في المتنبي ، بعد أن أورد ما استجاده من شعره وكلامه في الحكمة .

« فهذا يسير من كثير ، وقليل من غزير . ولكن هذا القدر كاف في الدلالة على ماله من الجيد . فانظر الى انحطاطه وارتفاعه . ولكن أين ارتفاعة ! ،

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٣

« وهذان الرجلان قد سار ذكرهما وثبت أمرهما وأسكرت الألباب خمرهما .

وفي تَعَبِ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها وَيَزْعُمُ أَنْ يَأْتي لها بِضَرِيبِ

« فالقاضي الفاضل رحمه الله انفرد بالترسل ، وانفرد المتنبي بالشعر مع مالهما من الانحطاط ولكن انحطاط المتنبي أوضع وأشنع .

« ولو أن الناس إذا رأوا جواداً بخل في وقت ، أو شجاعاً فر في وقت ، أو صانعاً ماهراً قصر في وقت ، يرمونهم بالعيب ويطعنون عليهم ولا يعدون لهم إحساناً ؛ لما كان في الوجود جواد ولا شجاع ولا صانع ماهر ولا خطيب بليغ ولا شاعر مجيد .

« وانما العبرة بالأغلب والأكثر ، والقليل معفو عنه ، لأن العصمة لا تشترط إلا للمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه [1] » .

وقد كرر الصفدي هذا المعنى ، واعتمد الى هذا الأساس في تعليله لعجز الحريري عن تحبير كتاب في ديوان الإنشاء ببغداد . وختم كلامه بقوله :

وليْسَ يُعَابُ المَرْءُ في جُبْنِ يَومِهِ إِذَا عُرِفَتْ منهُ الشَّجَاعَةُ بالأَمْسِ

وهكذا رأينا كيف كان للصفدي في نقده منهج واضح ثابت ، تسايره مجموعة من المبادىء الفرعية . أما المنهج الأصيل الثابت الذي يسبقه الى كل نص يتعرض له بالدرس ، فهو اعتماد النصوص ، والمقارنة بينها ، دون أن يقيم وزناً لتقدم هذه النصوص الزمني وتأخرها .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٧٦

وأما المبادىء الفرعية في منهجه ، فقد تحددت في إعادة معاني النص المدروس الى مواطنها الأولى ومصادرها الأساسية ، وفي إقدام الصفدي على اقتراح تعديلات من عنده على عبارة النص الذي يتصدى لدراسته ، لتتوفر لهذا النص عناصر الجودة المنشودة ، والتأثير المطلوب .

ثم كان من مبادىء هذا المنهج اعتذاره للأديب في مواطن إسفافه وانحطاطه ، إذا كان له في إنتاجه الرفيع ما يشفع له ؛ مما يدعونا الى التسامح في حالاته الأخرى .

★ ★ ★